

زاوية سيدي مخلوف بمجال الرحامنة دراسة تاريخية ومعمارية

Zawiya Sidi Makhlouf in the field of Rehmana,
historical and architectural study

فاس/الغرب	علم التاريخ	رشيد سلفوه - باحث دكتوراه (draah155@gmail.com)
DOI :		

الإرسال: 2022/10/06 القبول: 2022/11/27 النشر: 2022/12/22

ملخص:

لم تتل العديد من الزوايا بالبادية المغربية حظها من العناية والاهتمام، بحيث ان الكثير من الدراسات التاريخية في هذا الجانب نحت منحى حديثي، حظيت فيه بعض الزوايا بمكانة وعناية، ووضعت أخرى في الظل، رغم الأدوار المهمة التي نهضت بها في اعداد المجال وتنظيم الكثير من انشطته، ومن جملتها زاوية سيدي مخلوف بمنطقة الرحامنة.

تهدف هذه الورقة الى التعريف بتاريخ الزاوية وظروف التأسيس، ودراسة وحداتها المعمارية، واشكال الزخرفة التي ميزتها والمواد التي استعملت في عمليات التشييد أو الترميم أو التمديد.

كلمات مفتاحية: الخلوة؛ الزاوية؛ الضريح؛ المسجد؛ الفناء؛ الحوش؛ الموسم.

Abstract:

Many of the Zawiya in the rural world of Morocco did not receive the Care and attention, so that many studies carved event history in which some The Zawiya - received prestige and care, and others were placed in the shade, Despite the important roles they played in preparing the field and organizing Many of its activities, for example Zawiya Sidi Makhlouf in -Rehamna area

This paper aims to introduce the history of the Zaouïa and the conditions of its foundation, study its architectural units, the forms of decoration that Characterized it, and the materials used in the construction, restoration or Extension operations.

Keywords: El Khaloia; the Zawiya; the mausoleum; the mosque; the courtyard-the yard; the Moussem.

مقدمة:

تشغل الزوايا حيزا مهما من جغرافية المجال الرحماني، ويشكل حرما بمرافقه ومرتفقيه مجتمعا ينهل الوافدون عليه على اختلاف مشاربهم من ثقافته بقواعدها وطقوسها وإيقاعاتها، وتشكل إطارا ومرجعية توجه المجال وتنظم الكثير من أنشطته وتعمل على تجاوز العديد من حالات الاختلاف والتعثر التي يعرفها بين الحين والآخر.

لم يكن المرفق مركز إنتاج وتوجيه فحسب، بل أيضا كانت تتم فيه من خلال العلماء والفقهاء وجمع من أهل الصلاح والولاء، عمليات احتواء واحتضان وإدماج للكثير من العناصر الثقافية محليا على نحو ضمن للكثير من مكونات التراث شروط التماسك والاستمرار.

وجدت هذه "المركبات الدينية" في مقابل هذه الأدوار عناية واهتمام من طرف ساكنة المنطقة، تبدو بعض مؤشرات الأولى من خلال عمليات الترميم والإصلاح والتوسع الذي عرفته وحداتها المعمارية.

وسنركز في دراستنا للزاوية على الجانب التاريخي بتحديدات كرونولوجية تلامس ظروف وفترات التأسيس، وفي الجانب المعماري بوصف العناصر المعمارية وأشكال الزخرفة التي ميزتها والمواد التي استعملت في عمليات التشييد أو الترميم أو التمديد.

ملاحظات حول النسب والموقع الجغرافي للزاوية.

خريطة الزوايا بالرحامنة



تقع الزاوية وفق معطيات الخريطة أعلاه بجوار سيدي بوعثمان ، ولا تبعد عن المركز المذكور سوى ب 11 كلم، وتنسب إلى الولي سيدي مخلوف. المعلومات حول حياته وسيرته قليلة، وما رشح من الروايات الشفوية يفيد أنه كان من أهل الصلاح وصاحب ذكر، وتحفظ ذات الروايات بقصته مع السلطان الاكحل، بحيث أرسل بعض رجاله ليأتيه بامرأة تعرف بلالة مسعودة، قدمت من منطقة بوروس بالرحامنة على مقربة من واد تانسيغت، بعد طلاقها او وفاة زوجها بوروس، وكانت قد تعهدت بخدمة سيدي مخلوف، واطعام مريديه، وعرفت بجمالها ومهارتها في شؤون البيت وإعداد المأكول والمشرب. لما علم سيدي مخلوف بمقصدهم، اجابهم اليه واستشار صاحبة الشأن، فرفضت وطلبت حمايته، وظهر في ذلك بعضا من كراماته، بحيث اعد قصعة من طعام لجند السلطان اثناء عودتهم الثانية، فاستصغروا ذلك لكثرتهم، فاكلوا منها جميعا، وفاضت بركته، ثم أعلمهم برغبة لالة مسعودة وايقارها خدمة الزاوية، وراجعهم في ذلك فرفضوا، فصعد الشيخ لخلوته بالتل المجاور لروضته، فأغار النحل على خيول السلطان، مرددا "اخرج يا سلطان النحل للسلطان الاكحل".ⁱ

تفيد المعطيات الأثرية بجوار الضريح، وهي عبارة عن بقايا بيوت من الحجر، في الناحية الشمالية من مرتفع مجاور بأن الولي نعى منى التصوف والعزلة وأثر الخلوة بالموضع المذكور.

لم يكن مركز سيدي بوعثمان (تونين قديما) ضمن اختياراته، وهذا حال الولي سيدي أحمد بلفضيل و سيدي أحمد أو محمود، بحيث استوطن الأول بمكان بعيد عن المركز ناحية الغرب والآخر بشماله الغربي و سيدي مخلوف بشرقه، وهنا نلاحظ ظاهرة التوزيع لأهل الصلاح بجوار مراكش وخارج أسورها مثل الشراردة وابن ساسي و بلكرن، تتكرر بالنسبة للمراكز بالبادية الرحمانية وبجوارها، وان الإرث الرمزي لسيدي بوعثمان وعلاقته الاقتصادية والثقافية بمراكش، كانت من بين المحددات الموجهة لهذا التوزيع.

تميز الحيز الجغرافي الذي أقام به أهل الولاء بعيدا عن سيدي بوعثمان، بمقومات مساعدة على الاستقرار والاشعاع، فخلوة سيدي مخلوف تمتعت بموارد متنوعة من أراضي خصبة ومراعي (عزائب) ومصادر مائية خاصة عين سيدي مخلوف، فضلا عن وجود محور طرقي قديم رابط بين مراكش وبعض حواضر البحر المحيط.

2-الوحدات المعمارية للزاوية وخصائصها:

يمكن التمييز بين وحدتين معماريتين، نعتقد بان الأولى ظهرت بالجهة الشمالية لتل سيدي مخلوف، والثانية ظهرت بجنوبه.

رسم تخطيطي للنواة المعمارية الأولى للزاوية رسم تخطيطي للنواة المعمارية الثانية للزاوية



صورة (2) الوحدة المعمارية الثانية

صورة (1) النواة المعمارية الأولى



1.2-النواة المعمارية الأولى:

توجد بالجهة الشمالية للمرتفع ii المجاور لضريح سيدي مخلوف بيوت من الحجر، حاولنا من خلال دراسة أبعادها الهندسية وتوزيعها الجغرافي، أن نرتها على هذا النحو وبشكل يستقيم مع ما يمكن أن تهض به من ادوار.

جدول (1) معطيات تقنية عن الوحدة المعمارية الاولى

العناصر المعمارية للوحدة الاولى	الطول	العرض	الارتفاع
-بيت الخلوة	2,5 متر	2,5 متر	2,5 متر
-بيوت المرتفعين	4,5 متر	2,5 متر	2,5 متر
- الحوش	مجال مفتوح	مجال مفتوح	مجال مفتوح

يلاحظ من خلال الوثيقة أعلاه ان الوحدة المعمارية الأولى للزاوية شملت:

بيت الخلوة: يشكل النواة الأولى للزاوية (الصورة رقم 3-10-11) ويشمل: بيتا صغيرا، مربع الشكل طوله 2.5 متر وارتفاعه مثل ذلك، مرتبط ببناء آخر أصغر منه ارتفاعه 2.5 متر وطوله 1.5 متر وعرضه متر واحد، به رياحات (نوافذ) مستطيلة الشكل، ونرجح أن العنصر المعماري الأول هو بيت الخلوة لقربه من مغارة تعرف عند عامة الناس بالصراط، والمرفق الثاني ميسأة.

صورة رقم (4) البيوت الأخرى بالخلوة.

صورة رقم (3) بيت الخلوة



بيوت المريدين وعموم المرتفقين: بجوار النواة الأولى بني بيتان آخران تقريبا في نفس المستوى (الصورة رقم 4) عرضهما 2.5 متر وطول أحدهما 4.5 متر، تتخللهم رياحات بعرض 0.30 سم وطول 0.50 سم، ولم يبق من بيت رابع سوى أساساته من الحجر سمكها 0.40 سم.

الحوش: أسفل التل يمتد حوش وهو جزء من حرم الزاوية، قسم بأكوام من الحجر، إلى وحدات صغيرة تقام فيها الخيام وقت الموسم.

صورة (6) تقسيم الحوش بأحفير iv



صورة رقم (5) الحوش iii



إن تشكيل وحدات معمارية بجوار الخلوة مرتبط على الأرجح بضرورة الاستجابة لوظائف الخلوة، بالصلاة والذكر وإطعام المريدين على كثرتهم، وقد نشأت نواة معمارية جديدة في جنوب المرتفع بعد وفاة سيدي مخلوف، وبجوار ضريحه بعد الاهتداء إلى دفنه بالروضة التي تحمل اسمه.

2.2- الوحدة المعمارية الثانية:

لا نعلم متى توفي الولي سيدي مخلوف، ولكن معطيات الميدان تؤكد بأن الوحدات المعمارية الجديدة التي شيدت جنوب التل (تل سيدي مخلوف)، ظهرت بعد وفاته وبشكل تدريجي بجوار ضريحه، ويشكل ذلك نقطة التحول من خلوة ذات بناء بسيط إلى زاوية بعناصر معمارية أكبر حجما وأكثر تنظيما وتشمل:

جدول (2) معطيات تقنية عن الوحدة المعمارية الثانية

الوحدة المعمارية الثانية	الطول	العرض	الارتفاع	عناصر الزخرفة
-الضريح	4 أمتار	4 أمتار	5,5 أمتار	8 اضلاع-24 قوسا
.فناء الضريح	11 متر	4 أمتار	5,5 أمتار	3 اقواس
-المسجد	14 متر	10 متر	4 أمتار	9 اقواس
-مسكن المرتفقين	16 متر	14 متر	2,5 متر	-----
.بيت الاطعام	4,5 متر	2 متر	2,5 متر	-----

الضريح :

مرقد سيدي مخلوف مربع الشكل طول ضلعيه 4 أمتار وارتفاع الجدران مثل ذلك، تعلوه قبة بها 8 أضلاع وتبعد عن السطح ب 5.5 متر، وأسفل القبة عدد من الأقواس تتوزع على أركانها مجموعها 24 قوسا، تتخللها نجيحات من الجبس (الصورة رقم 7-8).

صورة (7) قبر سيدي مخلوف v صورة (8) قبة سيدي مخلوف vi صورة (9) فناء الضريح vii



يضم الجدار الشمالي للمرقد نافذة واحدة مربعة الشكل، طول ضلعها 1.20 متر، والمدخل عبارة عن باب علوه 1.60 مترا، وعرضه 1.20 مترا وسمك جداره 0.90 سم، وينتهي في أعلاه بقوس ويربط الضريح بالفناء.

فناء الضريح:

يحتوي الفناء على رواقين متقايسين مساحتهما الاجمالية 45 مترا مربعا (الصورة رقم 9)، تفصل بينهما 6 أعمدة دائرية الشكل، محيطها 1.40 متر والمسافة الفاصلة بينها تتراوح ما بين 1.5 و 1.20 متر، تنتهي من جهة الجنوب والشمال بثلاثة أقواس، بينما في الوسط تشكل مع السقف زاوية قائمة.

المسجد العتيق بسيدي مخلوف:

تؤدي لفظة الجامع والمسجد بمجال الرحامنة في المتداول الشفهي نفس المعنى، علما بأن المسجد يقيم فيه المسلمون صلاتهم اليومية والجامع يزيد عليه إذ تؤدي فيه صلاة الجمعة (متفكر أحمد: جامع الشرفاء بمراكش، 1992، ص 229- حجي محمد، معلمة المغرب، 1419هـ/ 1998م ج 9 ص 2862). انتشار المساجد بحوض تانسيغت ارتبط بالفتوحات الإسلامية، ووصول عقبة بن نافع إلى بلاد نفيس، حيث أسس بها مسجدا عرف باسمه، (البكري ابي عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، 1857، ص 160- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، 2013، ج 1 ص 52)، ومن المؤكد أن عدد المساجد بالمنطقة كثر بعد تأسيس مدينة مراكش، بداخل المدينة ثم تدريجيا بجوارها خاصة بعد اتجاه معظم القبائل التي وفدت إلى الحوز إلى الاستقرار، وأخذت المساجد تربط الإنسان بالمجال وتشكل حيزا قارا بدواوير وعزائب بلاد الرحامنة.

+ النواة الأولى للمسجد:

تفيد الشواهد الأثرية بالتل الصخري المجاور للولي الصالح سيدي مخلوف من جهة الشمال، بأن النواة الأولى للمسجد كانت بيت الخلوة للولي المذكور، قبل أن تقام بجواره

بيوت أخرى من الحجر، ويصعب في واقع الأمر التمييز من بين هذه العناصر المعمارية أي منها تشكل بيت الخلوة لتقاربها، وأحيانا لاتصال بعضها ببعض، ونرجح أن الأساسات الأقرب للمغارة هي الموضع المقصود (الصورة رقم 103-11)، وهي عبارة عن بيت مربع الشكل طول ضلعه 2.5 متر، وارتفاعه قياسا بالجدران المتبقية بالعناصر المعمارية المجاورة يقارب 2.5 متر، ويرتبط بمرفق آخر ارتفاعه 2.5 وعرضه 1 متر، وطوله 1.5 متر، لعله مضاة الخلوة والمسجد.

صورة رقم (11) مرفق مرتبط بالخلوة ix



صورة رقم (10) بيت الخلوة viii



+ بناء المسجد / الجامع بروضة سيدي مخلوف x:

يقع الجامع بناحية سيدي بوعثمان شرق الطريق الرابطة بين مراکش والدار البيضاء، ونرجح أن تأسيسه أتى بعد وفاة الشيخ سيدي مخلوف وأن موضع دفنه كان تنفيذا لوصيته، إذ لم يدفن شمال التل المجاور لروضته لمشقة الوصول لمركده، وأيضا لطبيعة المجال المفتوح من جهة الشمال على بلاد بورية بموارد محدودة، لكن على العكس من ذلك نلاحظ أن الطرف الجنوبي للتل مجال منبسطة بترية خصبة وموارد مائية وإشراف على تجمعات سكانية مهمة أهمها مركز سيدي بوعثمان.

حولت هذه الجاذبية المرتبطة بالرصيد الرمزي والديني والمؤهلات الجغرافية والبشرية الضريح إلى مزار ومحج للأشياء والأتباع، وتطلب ذلك إحداث عناصر معمارية جديدة كان من جملتها تشييد مسجد نسب إلى الولي الصالح.

إن وجود الجامع بالروضة وبجوار الصالح يبقى أمرا فريدا في منطقة الرحامنة لخلو غالبيتها من هذا المرفق، وكانت تقام فيه صلوات "الجمع" وقت حلول الموسم والصلوات الخمس وأيضا صلاة الجمعة، وهذا ما تؤكد الرواية الشفهية، واستمر ذلك حتى تأسيس جامع جديد بدوار سيدي مخلوف، وإغلاق الأول لبعده عن التجمع السكاني المذكور.

تشغل مساحة الجامع بالروضة المذكورة 140 مترا مربعا، مستطيل الشكل طوله 14 مترا وعرضه 10 أمتار وارتفاع جدرانه 4 أمتار. باحة الصلاة موزعة على 4 أروقة بشكل متوازي تفصل بينها 9 أعمدة عرضها 0.50 سم وطولها ما بين 0.90 سم ومتر واحد، وترتبط فيما بينها بأقواس.

صورة رقم (12) جامع روضة سيدي مخلوف xi صورة رقم (13) الباحة والأعمدة والأقواس xii



يتوفر الجامع على مدخلين أحدهما بالجدار الغربي والآخر بجدار القبلة، وبه كذلك المحراب عرضه 1.10 متر وعلوه 2.5، وينتهي بقوس تعلوه نجمة ملونة، ومقرب من الخارج من جهة الشرق بعرض 0.76 سم وطول 1.60 مترا. وبنيت بطرفه الجنوبي صومعة ، وهي حديثة الإنشاء وغير مكتملة قاعدتها مستطيلة، وارتفاعها العام يقارب 7 أمتار، تتخللها رياحات من الجهات الأربع مجموعها 18، تنتهي في الأعلى بأقواس صغيرة.

بيت الإطعام:

يبدو ان اختيار موضع هذا المرقف كان موفقا (الصورة رقم 15)، إذ بني بالناحية الشرقية للضريح حتى لا تؤثر الأدخنة على مرتفقي الزاوية، طوله 4.5 وعرضه متران وعلوه نحو 2.5 متر، له باب مفتوح جهة الجنوب ارتفاعه متران وعرضه متر واحد.

دار الإيواء: توجد غرب الضريح تفوق مساحتها 300 متر مربع (الصورة رقم 14)، ترتبط بها مiazza للنساء والرجال، وبيوت توزعت بين جهتيها الشرقية والغربية.

صورة رقم (14) دار الإيواء لزوار الزاوية xiii صورة رقم (15) بيت اعداد الطعام وموضع النخرة xiv



3- مواد البناء وبعض الطقوس المميزة لموسم الزاوية:

اعتمد في بناء مختلف الوحدات المعمارية المذكورة على مواد محلية من الحجارة ولحام الطين المخلوط بالرمال والجير، باستثناء الصومعة التي بنيت بالآجور والاسمنت وأعمدها من الخرسانة، واستخدم الخشب ورفوف القصب (الكايضة) في تشكيل سقف الجامع وغطي من الداخل بالجبس، أما الجدران فزينت بطلاء أبيض باستثناء الأجزاء السفلى حوالي (0.70) سم غطيت بطلاء بني (الصورة رقم 13). وبنيت جدران العناصر المعمارية من جهة الجنوب بالطابية واستخدم الجبس في تشكيل الأقواس بالمرقد وفناء الضريح وبالمسجد.

يقام بالزاوية كل سنة موسم يقرأ فيه القرآن الكريم، وتتلّى الأذكار والأوردة والأدعية لأصحاب الحاجات، وتقدّم إليه جموع من مناطق مختلفة من الرحامنة والقبائل المجاورة لها وأهم محطاته وفق الرواية الشفهية:

. النحرة: يوافق يوم الذبيحة وكانت من الجمال في السنوات الأولى من الموسم، ثم تدريجياً أصبحت تقتصر على بعض الخرفان، إضافة إلى الأطعمة التي ترد من الدواوير المحيطة.

. التزوار: بدخول الوافدين رجالاً ونساءً من مختلف الأعمار للضريح والتبرك به.

. الطواف: يكون في اليوم الرابع من الموسم يطاف فيه بالضريح ويمر 'الحجاج' من الصراط إعلاناً بنهاية الموسم.

. الصراط: يبدأ الطواف من الضريح ثم صعوداً إلى التل للمرور من الصراط، وهو عبارة عن مغارة صغيرة لها فتحتان للدخول والخروج (الصورة رقم 16)، ويعتبر المرور منها جالباً للحظ، والصحة والطهر والنقاء، ومن علق ولم يتمكن من سلك الصراط يكون مطالباً بالأخذ بأسباب الهداية والصالح والإحسان إلى الوالدين.

صورة (16) الصراط xv



وعلى كل حال تطور هذه الوحدات المعمارية يعبر عن طبيعة التحولات التي عرفتها زاوية سيدي مخلوف في علاقتها ببنيات المجال، بحيث اتضح ان جانبا من أدوار الخلوة انتقلت للضريح بعد وفاة سيدي مخلوف، وتطورت رمزية التدبير من الشكل الفردي الذي جمع فيه سيدي مخلوف بين الولي والفقير، الى تنظيم ثنائي نهض فيه الفقير بالمسجد والشيخ بالضريح، وهذا التغير المقرون بالارتباط بالنواة الاصلية سواء اكانت كيانا رمزيا او ماديا، له امتداداته في النسق الاجتماعي والاقتصادي بالبادية الرحمانية.

.تعليقات:

ⁱ- يحيل النص على تعدد رواياته على مجموعة من المعطيات التاريخية، مثل التأويلات بشأن السلطان الاكل، ومسألة المزامنة بين بوروس وسيدي مخلوف وأيضا الولي سيدي رجال الذي أتى Doutté على ذكر ما حدث بينه وبين السلطان الاكل، راجع :

– Doutté Edmond (1905) **Marrakech**. . Paris. p174-177.

ⁱⁱ- تشير معطيات البحث الميداني والرواية الشفوية ان بعض هذه الاساسات بني عليها مسكن المشرف على الزاوية خلال عقد الاربعينات من القرن العشرين.

ⁱⁱⁱ- تصوير بتاريخ 30/08/2022.

^{iv}- تصوير بتاريخ 30/08/2022.

v- تصوير بتاريخ. 30/08/2022.

vi- تصوير بتاريخ. 30/08/2022.

vii- تصوير بتاريخ. 30/08/2022.

viii- تصوير بتاريخ 25/08/2022.

ix- تصوير بتاريخ 25/08/2022.

x- اعتمدنا في بناء المادة على معطيات البحث الميداني- رواية المخلوفية رابحة، السن 63 سنة، من منطقة لمخالييف، تسكن بجوار الزاوية من ناحيتها الشرقية، وتشرف على تدبير مرافقها، وتوفير الطعام والماء للمرتفقات من النساء، تاريخ المقابلة، 07/07/ 2022.

xi- تصوير بتاريخ 30/08/2022.

xii- تصوير بتاريخ. 30/08/2022.

xiii- تصوير بتاريخ 30/08/2022.

xiv- تصوير بتاريخ 30/08/2022.

xv-، تصوير بتاريخ 30/08/ 2022.

قائمة المراجع

- البكري ابي عبيد الله.(1857)المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، Alger.
- حجي محمد (1419هـ/1998م) مادة الجامع، معلمة المغرب، إشراف محمد حجي مطابع سلا، ج 9.
- ابن عذاري المراكشي (2013) البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق بشار عواد معروف، محمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، ج 1.
- منصور محمد، (2013) « المجال الجماعي والمجال المقدس بالريف الغربي» ضمن كتاب التراث في جبال الريف واقع وافاق، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

- متفكر أحمد (1992) « جامع الشرفاء بمراكش » ندوة مراكش خلال العصرين المريني والسعدي، مجلة كلية الآداب مراكش، مطبعة ايداويسعدن، ع 8.
- Douthè Edmond (1905). Marrakech, Paris .